الباب الخامس

خروج دابة الأرض

obeikan.com

الفصل الأول

ذكر بعض المعاني والآثار والأحاديث المتعلقة بدابة الأرض

obeikan.com

قال الله عز وجل ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[النمل: ٨٢].

قد يجدر بنا قبل أن نشرع فى تفسير هذه الآية الكريمة والتى تشير إلى حدث جلل سيقع على الأرض ويعد من العلامات الكبرى التى تقع بين يدى الساعة - أن نبادر أولا بالاستعانة ببعض معاجم اللغة العربية لشرح معانى بعض الكلمات، ثم نعرض بعد ذلك لذكر بعض الآثار والأحاديث المتعلقة بدابة الأرض، لما فى ذلك كله - فى رأينا - من أهمية بالغة فى بحثنا هذا.

أولا: معاني بعض الكلمات الواردة في الآية الكريمة:

١- ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾

- قال قتادة: وقع القول عليهم: وجب الغضب عليهم.

وقال مجاهد: وقع القول عليهم: إذا حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون.

وقال عبدالله بن عمر: وجب السخط عليهم لأنهم لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر.

وقال ابن مسعود: وقع القول يكون بموت العلماء (موتًا روحانياً) وذهاب العلم (أى العلم الذى ينفعهم) ورفع القرآن (أى تعطيل العمل بتعاليمه).

٢- معني ((دابة الأرض)) فى معجم المعاني الجامع - معجم عربى عربى:

دابة: اسم الجمع: دواب

الدابة: كل ما يدبُّ على الأرض، وقد غلب على ما يركبُ من الحيوان (للمذكر والمؤنث) والجمع: دواب (وما من دابة على الأرض إلا على الله رزقها).

دابة الأرض: دابة يعد ظهورها من أشراط الساعة أو من أول علاماتها الكبرى.

الأرضة: التى ذكرها الله تعالى فى قصة سليمان عليه السلام إذ قال سبحانه وتعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾[سبأ: ١٤].

أَرَضَ: (فعل أرض يأرَضُ، أرْضا، فهو أرض، والمفعول مأروض).

أرضت الأرضة الخشب: أكلته - وجدت الكتاب مأروضا

أرضة: اسم الجمع: أرضات.

أرض الحيوان: حشرة بيضاء مصفرة تشبه النملة، تظهر فى الربيع وتعيش فى مستعمرات كبيرة، وتأكل الخشب والحبوب ونحوهما، أكلت الأرضة بعض الأوراق أفسد من الأرضة (مثل): يُضرب لمن يُعرف بفساده.

٣- بعض معانى لفظ ((كلم)) فى ((لسان العرب)):

أ- كلام الله وكلِمُ الله وكَلِمَتُه، وكلامُ الله لا يُحد ولا يُعد، وهو غير مخلوق: القرآن.

قال ابن الأثير: أعوذ بكلمات الله التامات، وفى الحديث كلامه بالتمام لأنه لا يجوز أن يكون فى شىء من كلامه نقص أوعَيْب كما يكونُ فى معنى التمام ههنا أنها تنفع المتعوذ بها وتحفظه من الآفات وتكفيه كلام الناس.

- وكالمته إذا حادثته، وتكالُمنا بعد التهاجر.

- كلمته تكليما وكلاما مثل كذبته تكذيبا وكِذابا: الذى تكلمه ويكلمك.

- وما أجد متكلما، بفتح اللام، أى موضع كلام.

- وكلم الله موسى تكليما، وقال أحمد بن يحيى فى قوله تعالى هذا: أنها لو جاءت كلم الله موسى مجردة لاحتمل ما قلنا وما قالوا، يعنى المعتزلة، فلما جاء تكليما خرج

الشك الذى كان يدخل فى الكلام، وخرج لاحتمال للشيئين، والعرب تقول إذا وُكد الكلامُ لم يجز أن يكون التوكيد لغوا، والتوكيد بالمصدر دخل لإخراج الشك.

- جيد الكلام: فصيح حسن الكلام منطيق.

- رجل كلمانى: كثير الكلام. ورجل تكلامٌ وتكلامة وكلمانىٌ - والأنثى كلمانية.

ب- كَلَّم: جَرَحَ. والكلْمُ: الجُرْح. والجمع: كلوم وكِلامٌ

- كَلْما: موضع نهشة الحية. وكلمه كلما: أى جرحه.

- وكلمه يكلمه: من باب قتل. أسد كليم: أسد جريح.

- الشيخ كالأسد الكليم: إذا جُرح فحمى أنفا، والرفع على قولك عليها الشيخ الكليم كالأسد والجمع كلمى.

- وأنا كالم ورجل مكلوم وكليم.

- تَكلِمُهم وتُكلمُهم، فتكلِمُهم: أخرجنا لهم دابةً من الأرض تُكلمهم، قرئت وقوله تعالى: تكلِمهم وتُكلمهم سواء كما تقول تَجْرحهُم: من الكلام، وقيل تجرحهم وتضسِمْهُم، وتُكلمُهم اجتمع القراء على تشديد تُكلِّمهم وهو من الكلام، وقال أبو حاتم: وتجرحهم.

- وقال الفراء: الجراح، وكذلك إن شدد تُكلمهم، كذلك قرأ بعضهم تكلمهُم وفسر تجرحهم والكلام: تسمهم فى وجوههم، تسِمُ المؤمن بنقطة بيضاء فيبيض، وتسم الكافر بنقطة سوداء فيسود وجهه.

- ذهب الأولون لم تكلمهم الدنيا من حسناتهم شيئا أى لم تؤثر فيهم ولم تقدح: وأصل الكلم الجُرْح.

- إنا نقوم على المرضى ونداوى الكلمى، جمع كليم وهو الجريح، فعيل وفى

الحديث بمعنى مفعول، وقد تكرر ذكره اسما وفعلا مفردا ومجموعا.

٤- ((الصحاح فى اللغة)):

- كلم: اسم جنس يقع على القليل. والكثير: الكلام.

- والكلم: لا يكون أقل من ثلاث كلمات، لأنه جمع كلمة مثل نبقة ونبق.

- كلمته تكليما وكلاما: يقال الذى يكلمك: والكليم.

- وكالمته، إذا جاوبته - وتكالمنا بعد التهاجر.

- كلمته كلما: تقول والكلم: الجراحة، والجمع: كلوم وكِلام، «دابة من الأرض تكلمهم» أى تجرحهم وتَسمُهمُ وقال عنترة: التصريح والتكليم.

٥- ((مقاييس اللغة)) - كلم:

لها معنيان أحدهما يدل على نطق مُفهم، والآخر على جراح: الكاف واللام والميم أصلان ثم يتسعون فيسمُّون كلمته أكلمه تكليما، وهو كليمى إذا كلمك أو كلمته: تقول: الكلام اللفظة الواحدة المفهمة كلمة، والقصة كلمة، والقصيدة بطولها كلمة والأصل الآخر الكلم، وهو الجرح (سورة المائدة الآية ١٣، سور النساء: الآية ٤٦) وجمع الكلم كلوم أيضا والكلام.

ثانيا: بعض الآثار والأحاديث المتعلقة بدابة الأرض

١- قال الله عز وجل: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾[النمل: ٨٢].

وقال كثير من أهل العلم بالأخبار أنها ذات وبر وريش وزغب، فيها من كل لون، ولها أربع قوائم، رأسها رأس ثور، وآذانها آذان فيل، وقرونها قرون إبل، وعنقها

عنق نعامة، وصدرها صدر أسد، وقوائمها قوائم بعير، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان، وترفع الأسماء فلا يعرف أحد باسمه، وهى تجلو وجه المؤمن بالعصا، وتختم على أنف الكافر فيفشو السواد فيه فيقال يا مؤمن ويا كافر.

٢- وفى مسند الإمام أحمد.. عن حذيفة بن أسيد الغفارى، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى بن مريم والدجال، وثلاثة خسوف، خسف بالمشرق وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب.. إلى آخر الحديث.

٣- وفى حديث رواه البخارى ومسلم قال رسول الله ﷺ :

«إن الساعة لا تكون حتى تروا عشر آيات: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، والدخان والدجال، ودابة الأرض، ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها ونار تخرج من قعر عدن ترحل الناس ونزول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام». مما يؤكد على أنها من العلامات الكبرى التى تقع بين يدى الساعة.

٤- عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: هى الدابة التى أخبر تميم الدارى عنها.

وعن الحسن أنه قال: سأل موسى ربه أن يريه الدابة فخرجت ثلاثة أيام ولم يدر أى طرف خرج، فقال موسى: رد هذا المتاع النفيس إلى مكانه لا حاجة لنا فيه.

ويقال إنها تخرج بأجنادين وعقب الخروج تسير بالنهار وتقف بالليل يراها كل قائم وقاعد وأنها لتدخل المسجد وقد عاذ به المنافقون، فتقول أترون المسجد ينجيكم منى هلا كان ذلك بالأمس؟ والله أعلم (جريدة العجائب صفحة ٢٠٥).

٥- قيل إنها دابة طولها ستون ذراعا ذات قوائم ووبر، وقيل هى مختلفة الخلقة تشبه عدة من الحيوانات، ينصدع جبل الصفا فتخرج منه ليلة جمع والناس سائرون

إلى المنى. وقيل من أرض الطائف ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليه السلام لايدركها طالب ولا يعجزها هارب تضرب المؤمن بالعصا وتكتب فى وجهه مؤمن وتطبع الكافر بالخاتم وتكتب فى وجهه كافر (النهاية لابن الأثير).

٦- «بئس الشعب جياد» (جياد هو جبل بمكة - لسان العرب) منه تخرج الدابة فتصرخ فيسمعها من بين الخافقين. (كنز العمال - المجلد السابع صفحة ٢٠٤) وبعض الأحاديث يدل على أنها امرأة كافرة خادمة للشيطان.

٧- حدثنا عبدالله بن بريدة عن أبيه قال ذهب بى رسول الله ﷺ إلى موضع بالنادية قريب من مكة فإذا أرض يابسة حولها رمل، فقال رسول الله ﷺ : تخرج الدابة من هذا الموضع (سنن ابن ماجة - الجزء الثانى صفحة ٥٠٤).

٨- وفى تفسير الجلالين - تفسير سورة النمل ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾[النمل: ٨٢] تكلم الموجودين حين خروجها بالعربية تقول لهم من جملة كلامها عنّا.

٩- وقال بعض العلماء والباحثين المحدثين أن دابة الأرض هى طائفة علماء هذا الزمان فيلزم أن يكون تكفيرهم حقا وصدقا، فإن من شأن دابة الأرض أنها تسم المؤمن والكافر، فمن جعلته الدابة كافرا فعليكم أن تقروا بكفره فإن التكفير بمنزلة الوسم من دابة الأرض.

الفصل الثانى

خروج الدابة من الأرض

obeikan.com

قال عز وجل:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾[النمل: ٧٥-٧٩].

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾[سبأ: ١٤].

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾[النمل: ٨٢].

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾[الشورى: ٢٩].

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾[النور: ٤٥].

أول هذا الحدث الجلل الذى سيقع على الأرض بدأه الله جل وعلا بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[النمل: ٧٥٧٩] - كما تقدم.

الغائبة: من الغيب الذى استُعمل فى كل غائب عن الحاسة، وعما يغيب عن علم الإنسان. وهذه الآية الأولى تؤكد على أنه ما من شىء خفى إلا وهو محفوظ فى علم الله علما تاما.. والآية التالية لها هى دليل على سابقتها لأن القرآن الكريم كشف عن أكثر القضايا والأمور الخلافية الهامة والخطيرة التى وقعت بين علماء بنى إسرائيل وحسمها بالقول الفصل.

ومن ذلك على سبيل المثال ما أدعته التوراة من أن النبى هارون عليه السلام أشرك (سفر

الخروج) بينما برأه المولى عز وجل فى القرآن الكريم عن الشرك تماما إذ قال سبحانه وتعالى على لسان هارون فى سورة طه:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ ﴾[طه: ٩٠].

ومن الغريب الملفت للنظر أن التوراة التى دونها المؤمنون بها قبل نزول القرآن بحوالى ألفى عام تتهم النبى هارون عليه السلام بالشرك رغم اعترافها بأنه يتلقى وحيا من الله. ثم يأتى القرآن ليبرئ ساحته تماما ويقر بنبوته وتلقيه الوحى من الله عز وجل وأن الذى يتلقى وحيا من الله لا يمكن أن يشك فى وجوده أو يشرك به (سبحانه وتعالى عما يقولون وعما يصفون) - وسبحان من أنزل هذا الكلام:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾[النمل: ٧٥].

ويقول الله جل وعلا:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[النمل: ٨٠-٨٢].

مع أن الله سبحانه وتعالى قال لرسوله ﷺ : إنك على الحق المبين إلا أن من الناس من ينكر الحق مهما كان واضحا جليا بينا. فأنت لن تستطيع أن تسمع الذين قد ماتت قلوبهم وخلت من خشية الله وتقواه ومحبته. إنما تستطيع أن تسمع الحق وتشرحه لمن يؤمن بالله وآياته، فهؤلاء هم الذين يدخلون فى حصن الله وأمانه لمن آمن وصدق بكتاب الله ورسوله.

وعند هذا أوحى المولى عز وجل أيضا لرسوله الصادق الأمين ﷺ فى القرآن

المجيد عن غائبة تتمثل فى حادث جلل سيقع على الأرض يصيب فى مقتل من وجب السخط عليهم إزاء كفرهم بآيات الله وطغيانهم وظلمهم وفسادهم وإفسادهم فى الأرض بالنهى عن المعروف والأمر بالمنكر.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[النمل: ٨٢].

قال ابن كثير:«هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله، وتبديلهم الدين الحق يخرج الله لهم دابة الأرض.. وبعد أن ساق آراء من قال إنها تخاطبهم من الصحابة والعلماء، فنده بقوله «وفى هذا نظر». وبعد ذلك ذكر رواية عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: أنها تَجْرَحُهُم. ثم ذكر عن ابن عباس أنها كلها تفعل يعنى هذا، وهذا، واستحسنه.

- وزعم بعض الصحابة أن دابة الأرض على ﷺ، والحال أن عليا رضي الله عنه أنكر تماما كونه دابة الأرض وسخط على الرجل الذى قال عنه إنه دابة الأرض، كما ورد عن عاصم بن حبيب بن أصبهان، قال: رأيت عليا على المنبر يقول إن دابة الأرض تأكل بفيها وتحدث من أستها، فقال له رجل: أشهد أنك تلك الدابة فقال له على قولا شديدًا (كنز العمال: الجزء السادس ص٢٦٩).

- وزعم بعض المفكرين والباحثين أن المراد من دابة الأرض هم علماء السوء الذين يشهدون بأقوالهم أن الرسول حق والقرآن حق ثم يعملون الخبائث ويبيحون الحرام ويتبعون الدجال كأن جودهم متكون من جزئين: جزء من الإسلام وجزء مع الكفر، أقوالهم كأقوال المؤمنين وأفعالهم كأفعال الكافرين، فأخبر رسول الله ﷺ أنهم يكثرون فى آخر الزمان، وسُمُّوا دابة الأرض لأنهم أخلدوا إلى الأرض، وما أرادوا أن يرفعوا إلى السماء واطمأنوا بالدنيا وشهواتها وما بقى لهم قلب كالإنسان، واجتمعت

فيهم عادات السباع والخنازير والكلاب. تراهم مستكبرين متبخترين كأنهم بلغوا السماء ومسوها، ولم تخرج أرجلهم من الأرض من شدة انتكاسهم إلى الدنيا، فهم كالذى شدد أَسْرُه كالمسجونين. يكلمون الناس من الإست لا من الأفواه، فلا تجد فى كلماتهم طهارة وبركة واستقامة ونورانية ككلمات الصالحين.

- وقد ورد فى المفردات أيضا: وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ أنها حيوان بخلاف ما نعرفه يختص خروجه بين يدى الساعة كإحدى علاماتها الكبرى وقد عنى بها نوعية خاصة من الأشرار الذين هم فى شرورهم وجهلهم أحط منزلة من الدواب فتكون الدابة جمعا اسما لكل شىء يدب على الأرض.

وكذلك قال الله عز وجل:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[الأنفال: ٢٢].

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾[الأنفال: ٥٥].

من أين ومتى تخرج الدابة؟

لم تحدد الأحاديث مكانا معينا لخروج الدابة، وإن كانت أشارات إلى صفة المكان الذى ستخرج منه.

- قال رسول الله ﷺ : فيما رواه عنه طلحة بن عبيد الله، قال: ذكر رسول الله الدابة، فقال: لها ثلاث خَرَجَاتٍ من الدهر، فتخرج خرجة من أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية - يعنى مكة - ثم تكمن زمانا طويلاً ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك، فيعلو ذكرها فى أهل البادية، ويدخل ذكرها القرية - يعنى مكة.

- وقال رسول الله ﷺ :«ثم بينما الناس فى أعظم المساجد حرمة على الله وأكرمها: المسجد الحرام، لم يَرُعْهُم إلا وهى ترغوبين الركن والمقام، تنفض عن رأسها التراب،

فانفَضّ الناس عنها شتى ومعا - أى تفرق الناس عنها كل له رأى فيها - وبقيت عصابةٌ من المؤمنين، وعرفوا أنهم لن يعجزوا الله، فبدأت بهم فجلت وجوههم» حتى جعلتها كالكوكب الدرى، وولت فى الأرض لم يدركها طالب، ولا ينجو منها هارب، حتى أن الرجل ليتعوذ منها فى الصلاة، فتأتيه من خلفه وتقول له: يا فلان الآن تصلى، فيقبل عليها فتسمه فى وجهه، ثم تنطلق ويشترك الناس فى الأموال ويصطحبون فى الأمصار، يعرف المؤمن من الكافر حتى أن المؤمن ليقول: يا كافر اقضنى حقى. وحتى إن الكافر ليقول: يا مؤمن اقضنى حقى».

- وعن عبدالله بن بريدة عن أبيه قال: ذهب بى رسول الله ﷺ إلى موضع بالبادية، قريب من مكة، فإذا «أرض يابسة» حولها رمل فقال رسول الله تخرج الدابة من هذا الموضع. فإذا قتر فى شبر».

- وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

«تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام، فتخطم أنف الكافر بالعصا، وتخلى وجه المؤمن بالخاتم، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر».

وفى رواية الإمام أحمد: فتخطم أنف الكافر بالخاتم، وتجلو وجه المؤمن بالعصا حتى أن أهل الخوان الواحد يجتمعون، فيقول هذا يا مؤمن، ويقول هذا يا كافر.

- وعن عبدالله بن الزبير ﷺ:

«أنها تخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان، فلا يبقى مؤمن إلا نكتت فى وجهه بعصا موسى نكتة بيضاء، فتفشو تلك النكتة حتى يبيض لها وجهه، ولا يبقى كافر إلا نكتت فى وجهه نكتت سوداء بخاتم سليمان، فتفشو تلك النكتة حتى يسودَّ لها وجهُهُ. حتى أن الناس يتبايعونِ فى الأسواق: بكم ذا يا مؤمن.. بكم ذا يا كافر؟ ثم تقول لهم

الدابة (بلسان الحال): يا فلان أبشر أنت من أهل الجنة، ويا فلان أنت من أهل النار».

- عن عبدالله بن عمرو ﷺ قال:

«حفظت من رسول الله ﷺ حديثا لم أنْسَهُ بعد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من المغرب وخروج الدابة ضحىً، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبًا».

- وفى صحيح مسلم. عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «بادروا بالأعمال سترا: طلوع الشمس من مغربها أو الدخان أو الدجال أو الدابة.. إلى آخر الحديث.

- وقد روى ابن كثير عن الطبرى عن حذيفة بن اليمانى وعن حذيفة بن أسيد عن الرسول ﷺ مرفوعا:

«إن ذلك فى زمان عيسى بن مريم، وهو يطوف بالبيت».

- وذكر صاحب مشكاة المصابيح رواية أخرى بمعناها فى باب أشراط الساعة يقول: «فيرغب نبى الله عيسى عليه السلام وأصحابه. فيرسل الله عليهم النغف فى رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة» -(مشكاة المصابيح صفحة ٤٨٤ - وصحيح مسلم «باب ذكر الرجال»).

هذا بعض ما ورد عن الدابة من تباينات فى كتب الأحاديث. والتى يصعب التوفيق بينها من ظاهر نصوصها وحرفيتها، وما حوته من بعض المبالغات التى تصورها مسطروها فى وصف هذه الدابة ظانين ملاءمة هذه التصورات لما سيقع من حدث جلل على الأرض.

وفى رأينا أن أصحاب هذه المبالغات فى وصف «الدابة» لو كانوا اجتهدوا فى إعمال عقولهم فى الآية الرابعة عشر من سورة سبأ، لتخلوا عن كثير من مبالغاتهم....

إذ يقول المولى عز وجل:

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾[سبأ: ١٤].

ففى هذه الآية الكريمة التى تحدثنا عن موت النبى سليمان الذى آتاه الله عز وجل ملكا لم يؤته أحد من قبله أو من بعده. وعلمه منطق الطير. وحشر له تحت إمرته جيشا عظيما ذا بأس شديد من الجن والإنس والطير. لم ولن تشهد البشرية له مثيلا. وسخر له الريح تجرى بأمره فى أول النهار ما مقداره مسيرة شهر، وكذلك آخره. وسخر له أيضا الجن على اختلاف أنواعه وطبقاته يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان ومن ينحرف منهم عن أوامره يذقه الله من عذاب السعير. وعندما قضى الحى القيوم بالموت على هذا الملك النبى العظيم، ظل بعد موته على كرسى عرشه متكئا على عصاه. ولم تعرف الجن الذين كانوا فى خدمته بموته رغم أنهم كانوا يدعون معرفة الغيب فقد غرتهم سرعتهم الفائقة على الإنس، فى الوصول إلى مواقع الأحداث ورؤيتها قبل الإنس إلى تصورهم الخاطئ الضال بمعرفة الغيب - وأضلوا معهم - للأسف - أيضا الكثيرين من عوام الإنس - وحتى الآن - بذلك.

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾.

وأراد المولى عز وجل الفعال لما يريد، أن يلقن العالمين جنه وإنسه معا درسا أبديا لا ينسى وسخر لذلك واحدة من أصغر وأضعف مخلوقاته على ظهر الأرض ليؤكد لهما بأنه سبحانه وتعالى وحده لا شريك له هو عالم الغيب والشهادة. وهو وحده الذى ينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام «شقيه وسعيده، مؤمنه وكافره.. إلخ» وأنه وحده الذى يعلم ماذا تكسب النفس غدا، وبأى أرض تموت.

لقد سخر العلى القدير لذلك «دابة الأرض» التى تأرض الأشياء لتأكل منها

(الأرضة) لتأكل من منسأة سليمان (أى عصاه) التى كان متكئا عليها، فاختل توازن جثمانه الفاقد للحياة وسقط على الأرض. فأيقنت الجن وشياطينهم بأنهم لا يعلمون الغيب. وإلا ما لبثوا فى العذاب المهين لهم باعتقادهم بأنه كان لا زال حيا، رغم فوات وقت ليس بالقليل على موته.

والأرضة كما هو معروف وورد فى معاجم اللغة (لسان العرب - المعانى الجامع) هى حشرة صغيرة جدا بيضاء تشبه النملة، تظهر فى الربيع وتعيش فى مستعمرات كبيرة، وتأكل الخشب والحبوب ونحوهما.

وقد أتصور فى هذا المقام أن البعض سيبادرنى متسائلا بشىء من الدهشة:

أليس ما تقوم به من بحث حول «الدابة» كأحد العلامات الكبرى التى تقع بين يدى الساعة هو بمثابة ضرب من ضروب التدخل فى علم الغيب؟!

ولكننى أود قبل الإجابة على هذا السؤال أو بالأحرى قد يكون تمهيدا لازما للإجابة عليه أن أذكر السائل بأنه قد يذهب عديد من الناس، فى تعريفهم للغيب، إلى أنه كل ما غاب عن إدراكه، وهم بذلك يتوسعون فى مدلول الغيب حتى ليحتوى تقصيرهم فى الاجتهاد فى الأسباب لتحصيل العلم وتدبر الآيات، وما أرساه المولى عز وجل فى هذه الآيات من سنن ومعادلات لا يحدها زمان ولا مكان فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد فرض علينا الإيمان بما جاء فى كتبه وعلى ألسنة رسله. وإذا كان الله عز وجل قد أعلمنا فى كتبه بأنه العدل المطلق وأنه بالمرصاد لكل ظالم أو طاغية، أو فاسد فى الأرض، وأنهم لن يفلتوا من سوط عذابه عاجلا أم آجلا وضرب لنا الأمثال لنعتبر بها فى آياته. وبنينا حساباتنا ووقفنا بعلمنا وإيماننا على هذه المعادلات وتفسيراتنا المنطقية لنصوصها السامية على حدث مستقبلى.. فإن الاجتهاد فى الأسباب لتحصيل هذا العلم مناشدة

للحق والحقيقة ليس فقط يخرج عن كونه تدخلا فى علم الغيب.. بل أكاد أرى - من وجهة نظرى - بأنه يخرج أيضا عن كونه تنبوءًا لأن المقدمات والنتائج قد تم ارساؤها سلفًا - والله أعلى وأعلم -.

ولقد أراحنا الحق سبحانه وتعالى بالحق الذى لا مراء فيه فى هذه القضية وهو أن الغيب إنما ينحصر فيما أخبرنا سبحانه وتعالى عنه بأنه غيبا. وأنه لا علم لأحد من الخلق عنه، وإن جاهد واصطبر وسبحان من أنزل هذا الكلام:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾[لقمان: ٣٤].

ومن المتعارف المتفق عليه أن علم الساعة يعنى تحديد توقيت قيام الساعة - وليس اقترابها من عدمه. وإلا لما أعلمنا سبحانه وتعالى بأشراطها والعلامات الكبرى التى ستسبقها وتعلن عن اقترابها.. ليتسنى منح فرص الاستغفار والتوبة وتقوى الله لاتقاء سعير جهنم رحمة بالعباد.

ومن هنا فإننا نرى أن جهدنا القاصر على مجرد تفسير النصوص وتطبيقهاعلى وقائع الأحداث ومجريات الأمور فى عصرنا الذى نعيشه ونعايش فتنه وتقلباته لا يخرج عن إخراج البعض من غفلتهم فى هذا العصر الذى طغت فيه على الناس الغفلة وكثرة الفتن.

لذا فإنه بالقياس على ما قدمنا وترتيبا عليه، وإذا ما أعملنا العقل وأمعنا النظر فى لفظ «دابة من الأرض» المنصوص عليه فى قوله عز وجل فى الآية الثامنة عشر من سورة النمل: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾[النمل: ٨٠-٨٢].

فإنه سيكون من جنس لفظ (دابة الأرض) التى سخرها العلى القدير لتكشف

عن موت النبى سليمان للجن وشياطينه حيث بينت لهم وللإنس بجلاء، أنهم لا يعلمون شيئا عن الغيب كما كانوا يدعون، بعدما أرضت منسأته فاختل توازن جثمانه - كما قدمنا - وخر على الأرض.

وستكون مثيلة فى صغر حجمها وضعفها وإن كان أثرها سيكون أكثر عمقا وأشد خطورة أضعافا كثيرة مضاعفة إذ سيسخرها العلى القدير عز وجل لإيقاع العذاب الأليم والجراح البالغة العميقة (تكلمهم: تجرحهم).. بكل كافر أو مشرك أو منافق، أو مكذب لآيات الله، أو طاغية مستبد أو فاسد مفسد فى الأرض.. وسينجى العلى القدير منها فقط المؤمنين الصالحين من عباده. وفى رأينا أنه لا مانع أن هذه الدابة شكل متطور من نوع الحشرات الموجودة الآن - ويكثر فى المستقبل - وتنقل الكثير من الأمراض إلى الأحياء على وجه الأرض والذى له بعض الإلمام بعلم الطب وتحقيقات الأمراض يعلم - على سبيل المثال - أن للطاعون وغيره من الأمراض الخطيرة جراثيم تنتقل إلى الدم عن طريق قرص حشرة البعوض وغيرها، وتسبب آلاما شديدة وجراحا بالغة ونزيفا فى المعدة والأمعاء والأنف، والتهاب رئوى حاد يؤدى إلى نقص الهيموجلوبين والأوكسجين والاختناق، مما يسبب احتقان وقتامة واسوداد فى الوجه) تنتهى غالبا بالوفاة.

ومن المعروف المشاهد فى عصرنا هذا أن بعض الأمراض التى تنقلها هذه الحشرات بما تحمله من جراثيم مثل التيفود والحمى الشوكية، وإنفلونزا الطيور، وإنفلونزا الخنازير، والإيبولا.. إلخ والتى تشترك فى كثير من الأعراض التى قدمناها - تطلبت جهدا عسيرا ومضنيا من العلماء للوصول إلى علاج لها.. ومع ذلك لم يتم القضاء عليها نهائيًا.. بل للأسف تتطور هذه الجراثيم مع مرور الزمن وتتطلب جهدا أكبر وأكبر لعلاجها.

ولعل هذا يفسر حديث الرسول ﷺ بخروج الدابة أكثر مرة - كما قدمنا آنفا

- وفى رأينا - والله أعلى وأعلم - أن هذه الدابة والتى سيخرجها الله العلى القدير سبحانه وتعالى من أرض يابسة كأغلب الحشرات الضارة - وكما حدثنا به الرسول ﷺ كما تقدم - ستحمل جراثيم (فيروسات) تخرج من استها - كما نبأنا به الإمام على ﷺ - ستكون أشد إيلاما وشراسة من جراثيم كافة ما ذكرنا من أمراض وباعتبارها آية من آيات الله سيستحيل على علماء الأرض الوصول إلى علاج ناجع لها أو لأعراضها والتى ستكون منها القراح والجروح ونزيف الدم فى الأنف والمعدة والأمعاء والالتهاب الرئوى الحاد الذى يؤدى إلى احتقان وقتامة الوجه واسوداده لكل كافر أو طاغية أو ظالم أو فاسد ومفسد فى الأرض تاركة المؤمنين بوجوههم الجلية المضيئة من أثر السجود ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[الفتح: ٢٩] وسبحان من أنزل هذا الكلام:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾[آل عمران: ١٠٦].

فتحقق بذلك الأحاديث التى تنبأنا بأنها تجلى وجه المؤمن وتسم وجه الكافر فيميز بها الخبيث من الطيب والمؤمن من الكافر وسيكون هجومها على الكافرين والمشركين والمنافقين والمفسدين وملاحقتهم على ضعفها وصغر حجمها أينما وجدوا حتى المساجد - ومنها بيت الله الحرام - حيث يتظاهرون بالتعبد والصلاة فيها هربا منها.

وسيقر علماء الأرض بعجزهم عن مقاومة ما تسببه من أذى كبير وألم شديد مع ما أوتوه من بسطة العلم والحيلة لكونها آية من آيات الله وإحدى العلامات الكبرى التى ستقع بين يدى الساعة.

وقد تجدر الإشارة هنا إلى ما ورد فى رواية أبى هريرة ﷺ المذكورة فى مشكاة المصابيح إذ قال: قال رسول الله ﷺ «على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون

ولا الدجال» متفق عليه - وقال الشارح: الظاهر وقوعه فى آخر الزمان.

وقد يجدر بنا هنا أيضا وقبل نهاية هذا الباب وبحثنا فيه حول «الدابة» أن نلفت النظر حول ما ورد فى الآية الشريفة الرابعة عشر من سورة سبأ:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾[سبأ: ١٤].

وما ورد فى الآية الشريفة الثامنة عشر من سورة النمل:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[النمل: ٨٢].

من تكرار لفظ «الأرض» فى كل من الآيتين ففى الآية ١٤ من سورة سبأ ورد لفظ «دابة الأرض» وفى الآية ١٨ من سورة النمل ورد لفظ «دابة من الأرض» مما يعنى أن عناصر تركيب كل من الدابتين البيولوجى من عناصر تربة الأرض - وليس من مكان آخر غير الأرض.

وهنا قد يتساءل البعض بشىء من الدهشة - وهل هناك مكان آخر سوى الأرض تعيش فيه دواب؟!

وللأجابة على هذا السؤال قد يجدر بنا أن نتأمل بشىء من إمعان النظر وإعمال العقل أيضا فيما ورد فى الآية الكريمة التاسعة والعشرين من سورة الشورى إذ قال العلى القدير عز وجل:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾[الشورى: ٢٩].

ومن المعروف أننا إذا فسرنا هذه الآية الكريمة بظاهر النص وحرفيته على

سبيل الجزم نقول المراد بجمعهم: حشرهم يوم القيامة ومعنى قدير: متمكن من ذلك فلا يتعذر عليه سبحانه جمعهم وأن تمزقت أوصالهم - ولكن ذهب بعض الباحثين (القانعين بعلم التأويل) فى آيات القرآن المجيد الفلكية، والعوالم العلوية والباراسيكولوجى والإعجاز العلمى فى القرآن إلى معنى آخر فى الآية الكريمة بالإضافة إلى ما تقدم يؤكدون فيه على أن الله سبحانه وتعالى خلق فى السماوات دوابا. بدليل ما ورد فى الآية الكريمة الخامسة والأربعين فى سورة النور إذ قال جل وعلا: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾[النور: ٤٥].

وأنه بهذا الدليل تكون الدواب المذكورة فى الآية الشريفة بسورة الشورى ليست هى الملائكة كما قال معظم المفسرين، بل هى حيوانات كحيوانات الأرض، وبالتالى ليس ببعيد أن يكون بينهم حيوان عاقل كالإنسان، كما أنه يتبع ذلك ويلزم أيضا لحياة تلك الحيوانات - بلا ريب - أن يكون فى السماوات نباتات وأشجار وبحار وأنهار - كما أقر بذلك فى عصرنا الحالى - منذ بضع عقود - علماء الرصد والباراسكولوجى.

ولا ريب أن هذه الآية الشريفة التى نزلت على الصادق الأمين ﷺ منذ أربعة عشر قرنا، لآية عظيمة لأهل الفكر والعلم والفلسفة فى هذا العصر الذى يبذلون فيه الأموال بلا حد ولا حساب - تكفى لإطعام وعلاج جياع ومرضى البشرية كلها - ليتوصلوا إل يمعرفة سر من أسرار الكائنات، ومع هذا الإنفاق الضخم والجد العنيف والجهد المتواصل لم يتوصلوا إلا بالظن إلى ما أنبأت به هذه الآية الكريمة، ولما ثبت لديهم جميعا وجود الماء والهواء، وحصول الصيف والشتاء فى هذه الكواكب السيارة، ظنوا أنه يوجد فيها عالم كعالم الأرض. ولا زال البعض منهم يواصل الجهد لايجاد الوسائل للمخابرة، وكيفية التواصل مع سكان المريخ الذى هو أقرب

السيارات إلينا. وعلى أية حال فإن ذلك ليس بالمستحيل علما ومنطقا.

ودليل آخر على إمكانية ذلك الذى أخبرت به هذه الآية الكريمة، يقول فى آخرها سبحانه وتعالى «وهو على جمعهم إذ يشاء قدير» فلا يبعد أن يتخابرا ويجتمعا فكرا، إذا لم يجتمعا جسما، فلينظر العلماء إلى ما حوته هذه الآية المكنوزة فى القرآن المجيد وليعلم المعجبون منا بالعلوم العصرية، الضاربون صفحا عن العلوم الإسلامية، ما فى كتاب الله جل وعلا من العلم والحكمة والبيان.

ولا جدال أو ريب أن الله عز وجل أنزل القرآن المجيد لبيان الحق وتعليم الدين أولا وبالذات «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» لكن - وتمهيدا لهذا السبيل - أتى بشذرات من العلوم الفلكية والطبيعية، لتحفيز بصائر الناس وعقولهم إلى التفكر فى خلق السماوات والأرض، وما هن عليه من الإبداع المعجز فوجه أبصارهم إلى التأمل فى خلق الإنسان وما هو عليه من التركيب العجيب المعجز، إلى غير ذلك من الأمور الفلكية والطبيعية فى أكثر من ثلثمائة آية كريمة. ولكن المفسرين - رحمهم الله - لما فسروا هذه الآيات، شرحوا معانيها على مقدار محيط علمهم بالعلوم الفلكية والطبيعية. ولا يخفى ما كان عليه هذا المقدار من محدودية ونقصان ولاسيما فى علوم الفلك والفضاء.. فهم معذورون إذا لم يدركوا معانى هذه الآيات التى حيرت عقول وعلماء ومفكرى وفلاسفة عصرنا هذا المتضلعين بالعلوم العقلية، لذا لم يفسروا هذه الآيات حق تفسيرها.

كما أن هناك أمر خطير آخر يأخذ به بعض المفسرين المحدثين تحت شعارهم القائل «آمنا بكتاب الله على مراد الله منه» ثم يغلون فى ذلك غلوا شديدا فى الاحتياط ينتهى غالبا بسالكى سبيله إلى التعطيل، وتجريد القرآن المجيد عن كثير من معانيه الداعية إلى الانتفاع منه.

وفى رأينا - أن هذا لا يرتضيه لكتاب الله العزيز مسلم غيور، فلو أن المسلمين حرموا نعمة الاجتهاد، ومتعوا أن يعملوا عقولهم وآرائهم فى كتاب الله - متقيدين

بلغته ومقاصده – لحرموا خيرا كثيرا.

وقد ثبت فى أصول الفقه – على ما يروى العلامة الفخر الرازى فى كتابه «مفاتيح الغيب» أن المتقدمين إذا ذكروا وجها فى تفسير الآية فإن ذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر فى تفسيرها ولولا جواز ذلك لصارت الدقائق التى استنبطها المتأخرون فى تفسير كلام الله تعالى، مردودة باطلة، ومن المنطقى المعلوم أن هذا القول لا يقول به إلا مقلد لا وزن له.

وسبحان من أنزل هذا الكلام بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] أى لا يهتدى إلى تأويله الحق الذى يجب أن يحمل عليه بعد المولى عز وجل إلا عباده الذين رسخوا فى العلم وثبتوا فيه وتمكنوا منه وأحسنوا الاجتهاد فى التأويل.

ومن الملاحظ الملفت للنظر أن من أهل العلم من يقف على قوله تعالى «إلا الله» ثم يبتدأ بقوله تعالى: «والراسخون فى العلم يقولون آمنا به» ويفسرون المتشابه بما استأثر الله بعلمه ومعرفة الحكمة فيه من آياته، كعدد الزبانية ونحوه.

وقال فى ذلك الإمام الرازى – رحمه الله: والرأى الأول هو الوجه – يعنى أن المتشابه يعلمه الله ويعلمه الراسخين فى العلم – وهؤلاء الراسخون فى العلم يذهب مذهبهم أتباعهم والآخذون عنهم، وعلى ذلك لا يكون إيمان المسلمين بالقرآن قائما على التعطيل ولكنه يكون قائما على الفهم، وحسن التأويل. وكل تأويل يزيد المسلم اطمئنانا إلى فهم الآية من كتاب الله، وواجب عليه أن يأخذ به، وأن يجرى على سنته، ما دام متقيدا بحدود اللغة التى نزل بها، وملتزما حدود الشريعة التى أوضح معالمها، ورفع أعلامها.

وبهذا يتضح جليا ما قصدنا إليه فى هذه الخاتمة من الأمرين اللذين ذكرناهما، فإن يكن ذلك صوابا فالحمد لله على نعمائه، وإن يكن غير ذلك فهو سبحانه وتعالى ملجأنا وملاذنا لستر العيوب وغفران الذنوب، وهو حسبنا ونعم الوكيل. نعم المولى ونعم النصير.